

مُهْرَقَان

فِداء محمد الكومي

المَهْرَقَانُ : البحر يُهْرِقُ ماءه
على الساحل إِذَا مَدَّ

: الموضع الذي
يفيض فيه ماء البحر

مُهْرَقَان

2024/04/04

فداء محمد الكومي

مُهْرَقَان

مُقْدِمَةٌ

والبحرُ لو فاضَ الحنينُ بقلبهِ ..
أُتْرَاهُ يبكي للشواطئِ مثلنا؟

أريقت شجونِي، كماء البحر حين يفيض على الشاطئ،
وحين يكون المد، يبتلع هيجان البحر الشاطئ بأكمله،
ويلملمه داخله مدناً وقرى،
والشجون حين تفيض تملئ النفس،
وحين تزيد تآكل كل العواطف المتراكمة أمامها،
وتلتهم الجسور وتحرق الأمل وتنسف الحب،
وتكسر الجمال، فتعيث في الروح فساداً،
ويهيج العقل ويميج.

تبعثرت الأمور حولي ،
إجتاحت قلبي نوبةً بكاءٍ حارة،
طفقت أبحث بين الوجوه عن الطريق،
كلهم حولي لكنني تائه ضائعة حائرة،
وكرهت السؤال، سألت عني وعنك،
عن نفسي وعني، عن أجزاءي التائه،
عن بعضي المفقود، تلمست قول درويش
" لا زلت أبحث عن الشيء الذي حين ضاع..
ضيعني "

لا أدري، أحزن على الذكريات؟
أم أفرح بها؟
أتألم أم أسعد؟
ما هذا التخيُّب؟
لما أشعر بشخص آخر يجثو على صدري،
يتنفس معي؟
لماذا ترهقيني أيتها الذكريات؟
لماذا تتعبين فؤادي وتمزقيني بك؟
ولمَ حين أقرأ كلمة نابضة .. أرتجف!
برغم عباب الأيام عليها، وهرمها وتغيرها وتحول قائلها؟

صديقي طوال الأمد، رفيق الرحلة
صاحبي المخلص الوفي
هلاً حلت عني؟ بالله خذ متاعك وإرحل
خذ الليل وأنصرف، خذ الفكر وإبتعد!
صديقي الأرق "حب لأخيك ماتحب لنفسك"
هنيئاً لك، طبقت الحديث جُملةً واحدة،
هل أنا الوحيدة التي يجب عليك زيارتها برفقة من تحب؟
برفقة من .. فقدت؟
لما هذه القسوة؟
ترفق بي أرجوك!
صديقي الأرق لا تعد بذكرى لا أريدها!
أغلقت أنا كتاب الذكريات،
أغلق وإنس ما تعرفه عني، أو على أقل تقدير
تناساني أنا من بين جنباتك رجاءً،
لا تطرق بابي أبداً، أسميك الصديق مكرهةً،
فأنت تلتصق بي ويكأنني أحبك!

يُورِقني كثيراً حالي،
ماعدت أهتم بحال البشرية،
فماذا سيصنعون لي ،
أستيقظ الساعة السابعة صباحاً،
بفكر مشتعل لم تنفك عنه أفكاره حتى في احلامه،
وقلبٌ واجل ليل نهار يشكو ألماً
بلا وقت ولا ميعاد..

سجدت، على أرض المسجد،
ألقيت رأسي، أعتذر ليس رأساً
إنها جبال تتسابق على قمتي من يعلو،
حين أنخفض للسجود،
أهوي بجبال راكزت من الوهن على صدري،
وعلى رأسي الكثير من مكتبات الذكريات،
المنسي نصفها، أنا لا أحفظ كل الذكريات،
أحفظ النصف الأول والباقي يرحل بعاصف الأيام،
سجدت سجود الواجف الواهن،
الراجي من الله أن يخفف عنه نصف ما حُمِّل،
لا أود أن أرفع من السجود حتى ينزلق الجبل من على صدري،
ثقل دك رأسي ودهس على عيناى التي تكاد تفيض، ثم أرتفع،
فأتأرجح محاولة جمع رفات ماتبقى من رباطة الجأش،
فأترن وأثبت الجبال من جديد،
تثبتني هي وتسمرنى مكاني ولا أثبتها،
لا سلطة لي عليها، لا أمر ولا نهى،
والمكتبات الجاثيات بحملها على رأسي،
آه تمنيت لو أنني قد دفعت بها،
لا بأس سأفقد نصف ذكرياتي لكن سأرتاح،
تفيض الكأس عند إمتلائها، وعقلي لا يزال يتوسع،

لا يُؤمن بفكرة الفأئض، وترك الزائد،
يؤمن أننا لن نسكب ماءً لنعبئ بآخر،
في حين أننا نستطيع ملئ كوب آخر،
أو إحضار برميلٍ يسع المزيد.

للتو ألقيت برأسي المثلث على وسادتي،
التي أشكو إليها كل يوم،
طول الليل، خفوت القمر، كثرة الغيوم،
قلة المطر، بكاء الصغار، أنين الداعين،
هل أنا محقة فيما أفكر به؟

منحتها إبتسامة صغيرة،
فخجلت وصدت عني بخدٍ أسيل،
وطرفٍ كحيلٍ رقيق،
ثم عاودت لي نظرها،
ولم أملك شغاف بسمتي ..
فتوجهت بقلبي إليها،
أحدثها، تلك الطفلة الصغيرة،
ذات الخمار الوردى المزخرف من كل حدب وصوب،
تلك التي تقوم الليل معنا جوار والدتها،
هي وبسمتها، توحى إلي أنها وردة صغيرة،
تاهت من الأندلس، تجول ببصرها بين المصلين،
تبحث عن يعيدها إلى تربتها،
فتتشبث بوالدتها، وهي لم تبلغ نصف طولها،
وتمنحني إبتسامة حية، تجعلني أرق لها،
وتغسل روحي من درن الحياة ببسمتها الزاهية،
بريئة كالقمر تطلع لتكشف عن قلبي ظلام الكبر،
وإنطفاء الأيام، كنجمة لمعت وسط جبال الحزن،
تكشف عن ثناياها البيض المتراصة،
صغيرة ثناياها وصغيرٌ فاهها، لكن بسمتها
وسعت سماء روحي وتربة قلبي،
روتني من الداخل،
أمسكت تلك الطفلة ذات الحجاب شغاف قلبي،
آه يا صغيرة.

تتساقط الأيام من على شجرة العمر،
تباعاً واحد تلو آخر، وأنا أرقبها بصمت،
أكبر..

أصبحت أكبر وكل يوم يزيد في الدنيا ينقص من عمري، ذاك لا
يشعرنني بالآسى،

وأذهب في سلة الأحلام أجمع الأيام،

وأركض خلف الريح المرسلة،

وأطير إلى الفراشات المرفرفه،

وأستنشق الأزهار الزاهية،

ولا أعبأ بشجرة الأيام،

وأروي شجرة الأعمار، ليكبر كل فرد على حب خالص،

أروي الآخرين الظمأ،

وأركض نحو البساتين الوارفة أجمع العسل،

وأسقيه للمحبين، فأكون وحيدة متحررة،

من قيد وأغلال الزمان،

وشجرة عمري في البعيد النائي، تُروى حيث شاء الله لها،

وتمتد جذورها تحت أمتار وأعماق الأرض،

حين أعود من رحلتي الطويلة،

أتفياً من ظلها، وأسند رأسي المثقل عليها،

فتجنح إلي بجذع يلتف حولي،

تُريني الثمار التي جنيتها بأفعالي،

وتعلمني أني لستُ وحدي،
وأنها تشتاقني، وكيف قدر لي أن تكون شجرتي في البعيد،
حيث لا تراها الأعين، ووتواري عن الخلق كُلهم،
وأعود إليها وحدي، متعبة الراحلة، منهكة الأفكار،
لا أحد يأتي معي، فأسلو بحديث نفسي،
وطريقي الطويل إليها، يجعلني أشتاقها،
هي ووحدي.

وبكيت بُكِيًّا،
حتى خلت كل خلاياي من الماء،
جفت وجنتاي وجفت عيناى،
حتى ما بقى لي موضع من الآلم
إلا بكيتته.

وقد كانت مشاعري في أوجها..
كتبت فيك حتى سئمت ومللت،
كنت دافع قلبي للمزيد،
كنت أنتَ عناويني .. كُنتَ الكثير من نصوصي،
كنت أكتب منك وإليكَ .

لكنكَ ماعدتَ عنوانًا،
صرتَ سطرًا،
وماعدتَ نصًّا بأكمله،
صرتَ نقطةً بصغرها.

دعني أزرِكَ في الأحلام،
عند الرقاد وعند المنام،
أو دعني أنام، بلا عذاب،
هل فرض عليك أن تزورني؟
كل ليل وكل صباح؟

وعندما كنا سوياً معاً، أجلس بتركيز أمامك،
أنصت إلى حديثك بكل إهتمام،
بكل جوارحي كنتُ أستمع، حين كان ينقضي الوقت،
لم أشعر أنه وقت أبدأ، حين طال اللقاء،
والقلب مشتاق.

هاهي تلك الرائحة، أتعلم..
أحب أسلوبك ذا، حين تكرر علي مراراً
أتعلمين؟ أتعرفين؟ هل سبق لك أن؟
أحب سؤالك وكثرته، أنت الوحيد الذي أطيق جوابه،
بل وأستلذه، أخبرتني أن الله إذا أحب عبداً ابتلاه،
ثم أبتليت بك، نعم أحبك لكنك كنت بلائي ونمائي،
كنت كثيراً فرداً لا مثيل له،
أتذكر؟ يوماً كان أرق من النسيم،
حين إلتقيتك صدفةً على السلم،؟
حين أبتسمت لي وضممتني في رحاب روحك؟
حين عانقت عيناى عيناك؟
أتذكر، يوم المطر حين خرجت فجأة،
فصادفتك وتظاهرتُ بالمضي قُدماً،
وقلبي يعود إليك كلما إبتعدت،
حينها أشرت لي بيدك،
لتخبرني بلغتك أن قلبك من أخرجك،
أتذكر، حين كُنت أتعطر بعطرك لأشعر بالأمان؟
والآن أخشى حمله كي لا يحملني الحنين إلى الإرتجاف
فينكسر، ويتصدع قلبي، وماعاد هو بمحتمل،
وأنتِ من أنتِ كنتِ سنداً لي،

مُهْرَقَان

يا صديقتي الغريب لا يخون ولا يكسر ولا يلوي ذراعنا،
الغريب لا يكذب ولا تهون عليه عشرة،
القريب من يكذب وتهون عليه الأيام، يا صديقتي
من يلوي أذرعنا ويكسرنا وأحياناً يضمنا ثم على حين غفلة،
يهوي علينا بسكين الهجر، ونحن لا ندير ظهورنا،
إلا لمن نحب ونثق أنهم يوماً لن يكونوا ولم يكونوا
سبباً في معانتنا أبد الدهر،
.. كنتُ أتحدثُ عنك بالصفة المجهوله،
ولم أختصك بالحديث،
لكن عصي على قلبي ذرف دمه في سبيل تذكرك،
وعصي على عيني ذرف دمعها في سبيل لقياك،
لن أخلق لك حججاً واهية، كي أعبر عن حبي لك،
وعن مدى فقدي الشديد لك،
عن مدى حاجتي إلى محادثتك،
أكنت المقصرة في حقك؟ هل أخطأت؟

ودعت مكاناً آخرًا كان يضيء بنا معًا،
عدت .. لأتغلب على حزني، فحزنت أكثر،
مشيت في نفس الطريق الذي مشيناه سويًا،
حين كنا معًا، حين كنت أتحدث بكلي ولم أعبأ،
حين كنت أشعر معك بالأمان الذي أنساني العالم،
ونتضحك، ونصنع قهوتنا المقطرة تحت أوراق الشجرة العتيقة،
حين تبادلنا الحلوى بهممات المحبة،
وحين كنت أنظر إلى عينيك فأسبح،
وإلى بسمتك فأمن على روعي أنها معك،
حين صلينا سويًا، وكلانا يلهج بإسم الآخر في سجوده،
حين شق الرعد صفحة السماء، فبكت بكاءً قويًا،
هطل علينا الغمام بقوة، وكنت أخشى عليك المرض،
لكن حين رأيت سعادتك، وعدوك نحوه .. إبتسمت،
حين وقفنا تحته نبتسم، تتأملين قطراته،
وأنا أتأمل بسمتك، تدعين الله أن نحصل على علامة كاملة،
وأنا أدعوه ألا يحرمني إياك،
وها أنا اليوم، أقف مودعةً خيالك،
حين أُجبرت على الرحيل،
فما كان في أيدينا حيلة، وصنعنا آخر ذكرياتنا،
قهوتنا الخاصه، المليئة بالكثير من بن الوداد،

ومياه الجمال، والكثير من سكر الرفاق،
حين كانت آخر قهوة نحتسيها سوياً،
وآخر لقاء لنا تحت الشجرة العتيقة،
ودعتنا بلغة خاصة، علمت أنني لن أعود لظلها وحدي،
إما معك وإما لا، تعلم أنني لن أعود لوحدي وأتأملها،
لن أمسها بأناملي فقط، تعلم جيداً أنه آخر أيامنا معها،
فتساقطت أوراقها، معلنةً خريف حبنا،
فالحب شتاء أحياناً، وربيع أحياناً، وصيفٌ غالباً،

حين تختنق كلمتي،
وتحشر عبرتي،
وتسلسل دمعتي،
خوفاً على قلبك من الحزن،
وعقلك من التفكير،
ياليتني خشيت علي بقدر ما خشيت عليك،
وهل ينفع الندم؟
بعد أن أرقّت دمعني بنفسي،
وحطمت ذكرياتي بيدي،
لن أقول أنك السبب، أنت سبب وأنا السبب،
لا زلت أراك جزءاً مني،
لا تعد إبق بعيداً،
لقد أحدثت جلبة، سأحادثك بمسافة آمنه،
فقد سئمت الإنكسار .. ثم أعود لأنحني،
وأجمع أجزاءي المحطمة،
بيأس ودمع يجري عليها، أنا أجرحني حين أحمل كسري،
فتنزف يداي ذكريات ..
ويحترق عقلي من الألم
ويعتصر فؤادي .. من التذكر.

تعالِي أحتضنك، وأخبرك أنني لا أحتضن إلا من أحب،
تعالِي، ببسمتك، يا صغيرة،
داعبي عقلي وأداعب خصلاتك،
تعالِي أربط حجابك،
مدي يداك واصحبيني،
أي طريق ؟
أنا ملكك أيتها الملكة الصغيرة،
فلتسحبيني بأناملك الحريرية حيث شئت،
واسبحي بي بعيداً عن شؤم الكبار،
بعيداً عن ندم الأعمار،
لدي برائتك ولهوكِ إصحبيني
يابدرًا تجلي فأنا عتمة سمائي ببسمة،
تشبهينها.. تعيدنين لي ذكراها،
أحين كانت صغيرة مثلك.. كانت تشبهك؟

جلت ببصري الشاخص في السماء،
باحثة عن قمر، يضيء صفحتها السوداء،
يمنحني إبتسامة، يسري خلاله بخفة وجهها،
الذي تحاشيت النظر إليه كثيراً،
فيظهر إلي على هيئة خيال.

لا تعد .. لا تعد .. أرجوك،
إن عدت فلا تؤلمني هكذا،
رفقاً بي ..
فأنا لا أستطيع إيقافك،
أستطيع كبح جماحي،
وإيقاف قلبي،
لكنني لا أقوى على عقلي وقلقي وخوفي.

جاهدت حتى أقف أمام ذكراك،
جاهدت .. حتى بكيت وأبعدتك عني،
ومضت الأيااااااااااااام .. يوم تلو يوم،
أنا أنساك، بدأت أفقدك، وأفقدك بلذة الإنتصار،
ثم رائحة .. جعلتني أنكب على وجهي في لحظة،
وكان ماكان لهم يكن من قبل،
وكان ما فعلت لهم يكن.

سئمت اللوم والعتب،
كل يوم تعيد قراءة جريدتك علي،
لقد مللت ألم تمل؟
ألا تشعر؟ كل يوم بنفس الكلم وبنفس النبوة!
ألم تتعب؟!
ألن تتوقف؟
أتريد أن أهيل عليك المزيد من الأسئلة؟
لا تلمني وأنتَ السبب،
لا تعتب على قلبي وأنتَ السبب،
هرم صمودي ولسانك لم يزل يثرثر،
ألا تعرف الصمت؟
تقول لي ان الوقت سيمضي،
دعه يمضي .. دعني أرتجف
دعني أندم وأتأوه ما شأنك؟
إترك الزمن وما به، دع الحياة،
دع السنون، إمض من أمامي،
أوقف العتب قليلا!!!
تريث ألم تقل أنك لا تبالي؟
ثم تأتي وتغدق شلالات العتب على قلبي!
يا قمة الامبالاة يا صامداً راسخاً،
البينة على من إدعى وأنتَ تفر بلومي.

حين صنعتُ قهوتي،
في الكوب الذي أهديته لي،
حركتها وحركتها ووضعت الكثير من السكر،
بل ولا أكف عن تحريكها،
حتى ظن بي أنني جننت،
كنت كلما رفعتة لأرتشف منها،
رأيت خيال منك يبتسم،
تتراخي يداي، وأعيد الكوب مراراً،
أتعلم .. بردت قهوتي وذاب سكرها،
وقلبي كلما تذكرك بكى عليك وذاب في حزنه،
أيارفيقتي .. أين أنتِ؟
أوحشني لقياك.

رشفت آخر قطرة بوهن،
آخر نقطة في الكوب، ثم لم ألتفت إلى آخره،
وكنت أغمض عيناى حين أشرب،
لكن قلبي يبصرِك، تنام العيون وتبصر القلوب،
تغفو الأفكار وتصحو العقول،
تهدت، وكأنني للتو أنهيتُ مهمة شاقة،
بذلت فيها إحساسي وتفكيرى،
وكانت الطاقة أكبر من أي جهد آخر،
إن حروب الأفكار والمشاعر تستنزفنا أكثر
من حروب الجيوش وإصطكاك السيوف،
يبيت القلب يقظاناً في جسد منهك، لا يقوى على الحراك،
ويبيت القلبُ منهكٌ في جسد سليم، ولا يقوى على الحراك،
لكن الصورة لا تحمل دائماً المعنى الداخلي.

وأين أنتَ.. لا إشارتٍ لوجودك أوقدومك..
رحلت أنتَ بكل ما لديك وما لدي،
ولم تدع لي سلواً أسلو بها.

قرأت اليوم نصاً عن الديار،
وعن الوطن، فهاج بي الحنين وماج، إلى مصر
حواء القرى وقرارة التاريخ والآثار،
عقلي لا يحن لشيء واحد فقط،
بل يحن جملةً واحدة، إلى كل شيء
وآه يا عقلي منك آه، حننت إلى شخصي القديمة،
وإلى روعي المرححة الفرحة، وإلى أملي السابق،
إلي كنتُ أحن، ثم خرجت برحلة شجوة أطول
إلى تذكرك الرفاق، وإلى تذكرك الأصحاب،
وكنتُ أخشى على نفسي من التذكر، بل من الذكريات،
وأخشى على نفسي من الحنين، وكننت لا أعبأ،
من ذا الذي قد يتغير فيحن إلى ماضيه؟
إختار أن يحيله إلى ما يريد ثم يحن؟
ألا يندب حظه وينحوح كالمرأة عليه؟
يمسه الحنين فقط.. يهوي إلى الذكرى بدمعتين لامعتين..
ليتنز بجسده في الحياة،

كنت أخشى وماخشيتته كان .. لكن إنه الشوق..
هَجَرْتُكَ مُشْتاقاً وَزُرْتُكَ خائفاً
وَمَنِّي عَلَيَّ الدَّهْرَ فَيَك رَقِيبُ
سَلَامٌ عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَا أَزُورُهَا
وَإِنْ حَلَّهَا شَخْصٌ إِلَيَّ حَبِيبُ

لَا يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فُرَادَى!
بَلْ كُلُّ صُحْبَةٍ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ سَوِيًّا
فَاللَّهُمَّ زِحَامَ الْجَنَّةِ
زُمَرًا وَإِلَى عَتَبَاتِهَا
يَا رَبِّ مَعَ مَنْ نُحِبُّ

ارحم فؤادي
والله أبداً لا أحتمل،
وقع حروفك مثل السياط
وقلبي سجينٌ لا يقتدر،
وعقلي مكبلٌ بالاصفاد
وروحك لديك بدت تحتضر.

وإن كان البُعد يُنسيك إياي،
فأجزم أنه لم يزدك مني إلا قُرْبًا،
وإنك في الدعاء لأكثرُ مني،
وما نسيْتُك ولا غبتُ عني،
تراك عيني وإن غيَّبْت عن بصري،
ويُبصرُك عقلي وإلَّم أُبدي.

أصبحت دمعتي تهوي، على وجنتاي فأحترق،
لشدة الحزن كأنني فتيل،
ورائحة الشمعة هي ذكرياتي، روائح مختلطة،
رائحة المطر، ورد ذابل، ورق القديم، عطرٌ كرهته،
قلبي يذبل من جديد، بعد "عصر النهضة"،
أعرف هذا الأفول، إنه موت لا حياة بعده،
ورحيل لا قدوم بعده، وعزاء لا فرح بعده،
أفرغت عيناى دموعها المتحاشرة في محجراى،
أفرغتها كي ترتاح، فأذابتني،
وكي أرتاح أومأت بها على الورق، تملكني الشجن
فعدت أبكى، لا أستطيع الكتابة، والدموع في عيني تتكاثر،
كيف أعيش، بقلب محترق، أتسأل هل نتنفس الحروف؟
فلا أوكسجين هنا، إذا كيف أعيش؟

تألّمت مرتين، مرةً لحبي ومرةً لعفوي،
وبكيت مراراً،
والمرء حين يفقد نفسه،
فإنه يبكي مرةً واحدةً وإلى الأبد.

فتحت خزانتي القديمة،
متجاهلة هرم الدفاتر الذي تراكم بعضه فوق بعض،
متعاميةً عن الورود الجافة والهدايا التي لم أفتحها،
باحثةً عن قلمٍ أحبه وأريده،
وقعت صورةً صغيرةً، كرهت أن أحملها،
أعلم انها ستكسرني ...
فآثرت إعادتها دون النظر إليها،
ولكن تملكني الحنين وقلت سأصمد هذه المره،
أمسكتها برفق، بعد أن كستها طبقة من رماد الذكريات،
ورأيت وجهاً صغيراً، يتسم بكل براءة وهدوء،
يحب الحياة، مليئ بالأمل، إنها أنا،
حين كنت حبيبة ماما وبابا، ولا أبالي بالدنيا وسوئها،
حين كنت أكل من يدي امي، وأنام في حضن أبي،
حين كنت مدللة جدي، وحفيدة جدتي الكبيرة،
كنت أهتم بنوع اللعبة، لا بنتيجتها..
كنت أشرب القهوة، ولا أتذوقها ..
حين كنت أدافع عن أختي، وأضرب الفتيان بكل قوتي،
حين كنت أدرس بجد، وطموحي أبعد من السماء،
نعم أن أصبح رائدة فضاء، تنعكس في بؤبؤتي
الكثير من الآمال، والآن تعكس الكثير من الآلام
أومات برأسي عليها، فهوى دمعي،

وبكيت نفسي، أنعاهَا، حين شيعها الحنين،
وشيعتني عيني الدموع،
وبكت السماء وغسلتني، وأنا جاثية على أرض عقلي،
أبكي كأمٍ فقدت ولدها في حرب،
حرب لا تعرف فحواها، لكن نبأها قلبها بالنتيجة،
صرت أتحمس المستقبل لا أتحمس،
صرت أقيس نتائج اللعبة قبل دخولها،
صرت إبنة ماما وبابا، وحبابة الشجى والنحيب،
وصرت أكل بيدي ألمي وأبيت في أحضان حزني ووهني،
صرت مسؤلة جدي وجدتي ومدللة الغم وحفيدة الجوى،
صرت أتذوق القهوة، فأذوب فيها حُزنا، وتذوب في مرارة،
نتقاسم، المرمره والحزن مراراً،
والآن لا أختي تدري فتدافع عني، ولا أنا لأدافع عن نفسي،
لأحد يردع أحداً عن مصيره وقدره، صرتُ أُضرب،
بسياط الحروف أجلد، صرت أدرس..
وحلمي لا أبعد من السماء ولا أقرب إلى الأرض،
طموحي أن يرضى عني ربي،
ويبدلني خيراً،
هأنا ذا.. يأن المنعكسة في بؤبؤي،
كبرتُ وكبرت همومي،
ونمت ونامت آمالي،

وتعثرت وتعثر طموحي،
هأنا ذأ، أدفع عن عقلي قلبي،
وأدفع عن قلبي عقلي، حرب روحيه،
لا حرب أهلية ولا عالمية.

وبقيت وحدي،
وحدي وحدي، أكتب الكتب وحدي،
وانشرها وحدي، وأخيط جراحي وحدي،
وأمشي لوحدي وابكي لوحدي،
لا أحد يحتضنني، لا أحد ينتظرني،
كنت أنتظر الأحياء،
وأرعى الصغار، وأسقي الورود،
وأرعى النجوم، وأتابع القمر.

الحقيقة أنني تجرعت مُر رحيلك،
ثم أتيتَ محاولاً إعادة مامضى،
وتحسب أنني سأعود،
واعلم أن الذنب فقد غفرنا وأما الود فلا يعود،
ماكنت تلبسه من حب وجمال أمامي، تلاشى،
اريدهم ولا أريدك، أحبهم ولا أحبك،
أشتاقهم ولا أشتاقك، ماعدت تعني لي شيئاً،
يؤسفني وداعك لأنني كنت يوماً أحبك،
لكن .. وداعاً.. وإلى اللالقاء نصير.

عُد.. أتخشى أن أطالبك بتبرير؟
عن هجرك بلا سبب،
عن تحولك بلا هدف،
عن تغيير فكرك وتفكيرك بلا مبرر؟
عن ماذا؟ ماذا أعد وماذا أدع؟
عن تقلباتك، عن كلامك الجارح،
عن سكاكين الكذب التي غرستها في مخيلتي،
عن ماذا بعد؟
عن روحك التي تنهشني بالهجر؟
عن ماذا؟ عن حلفك لي بألا تدعني،
و"أمام القرار الكبير جُنت"

ليست الغصة الأولى التي أبتلعها بحذق،
ولن تكون الأخيرة،
حين أرى رسائلك.. وأقرأ ذكرياتك،
لن يكون هذا أخرى مسمار يدقه الحنين في نعش ذكراك،
أخذت ريح الجوى المرسلة رفات روحك،
وبعثت دمعاتي المتطايرة قصاصات ذكراك،
أسالت حبرها وسالت صورتك معها.

في لجج الصراعات المتكررة المتراكمة المترامية،
كنت أستمع بلين إلى تكبيرات العيد،
كيف لهذا اليوم الجليل الجميل
أن يملأ مسلمي الأرض سعادةً أولهم عن آخرهم،
لأتأمل رحمت الله الواسعة،
التي يرسلها في معنى "الله أكبر"
وفي لمعة الأعين،
وصوت الضحكات،
وبسمات الأطفال،
في رائحة الأثواب الجديد،
ورائحة العود الثمين،
كيف يضيء العيد حلته الخاصه ولمحته البارقة
على أيامنا ووجوهنا!

صبح للعيد أتى،
وأنا منذ العيد الفأئت أبحث عني،
وأبتعد عنك، وأبعِدك عني،
ثم أنساك بل أتناسك.

دعني لا أخبرك، وأن لا يكف عقلي عنك،
ولا يتوقف قلبي عن الكتابة إليك،
دعني لا أحدثك، أتظني أستطيع كبح شوقي؟
يالي شوقي مني آه،
في القبر نتناقل أشعاره وننسب الشوق لنا،
فيصير أمير الشعراء،
تعال أو ما تأملت؟
الشوق أمير العاطفة وملك القلوب،
وشوقي أمير الشعراء وملك القراء،
أترى ..
وأنت ..
أتخبرني بما أود أم أخبرك؟

نعم.. جفت كلماتي،
ذهبت أقرأ طوق الحمامه،
وشعرت أنني أشج قلبي به،
فهرعت إلى رسائل الأحزان فوجدتني أقطع روعي لأجله،
وعدوت إلى الشعر،
ألوذ به، فقرأت ديوان العباس بن الأحنف،
وأخيراً بكيت.

هَجْرُكَ ثَقْبَ قَلْبِي،
فَخَرْتُ ذِكْرِيَاكَ رَاكِعَةً،
وَهَمَّتْ مُرْغَمَةً إِلَى وَادِي النِّسْيَانِ،
أَحْرَقْتُهَا حَرَارَةَ الدَّمُوعِ فَاسْتَحَالَاتِ رَمَادًا،
سَافِرٌ مَعَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ،
إِلَى حَيْثُ اللَّامِكَانَ .. فِي رُوحِي الْمُنْهَكَةِ.

حين أخبرتك أنني أحب التفاصيل،
أوجعتني بها،
لم تفعل هذا؟
أتعلم.. وأنت تعلم أنك مخطئ،
أتيتني في حلم اليوم معذراً،
وكان قلبي أوسع من خطئك،
كنت سأقبل.. لولا أن إنتهى الحلم،
الحمد لله أنه إنتهى، حتى لا أقبل،
وأبكي أكثر، كي أتخلص من مشاهد عيناك في ذاكرتي،
فقط يريحني البكاء،
وأدهس ذكرياتك ورسائلك بكل برود،
وقد كنت أحبها وأبتسم لها،
الآن.. أسمع أطباء العلاج النفسي يقولون:
تخلصوا من ذكريات الهاجرين،
وما علموا أنك كالقمر..
لك أطوار، الفرق أنك أغلب وقتك محاق،
لا تسألني لم!
والذكريات التي إحتفظت بها،
لم أتخلص منها، أبقيتها،
كي أطأ قلبي بهدوء،
فلن تتعالج روحي إلا بهذا.

تعالى معلمتى أرىك،
حىن كنت فى القدىم تخبربنى،
تلك المسألة أكل الدهر علفها وشرى،
وهذه لىس لها فى الموضوع لا ناقة ولا جمل،
تعالى أرىك،
من أكل الدهر علفه وشرى،
ومن لىس لده فى الدنيا لا ناقة ولا جمل.

بعض الزجاج المحطم على الأرض،
نعيق غراب،
هزة برق تشق صفحة السماء عن آخرها،
سمفوانية الرعد تدوي في الأرجاء،
وأنا هنا أضمك بين طياتي،
أمام صحف السحب،
تنافسي من يضم حبيبها،
تضم مطرها ثم تنزله،
أم أضمك في دعائي وأرفعك؟

أبكي لتنزف من مخيلتي،
لا لتستقر أكثر،
يذبيك دمعي لكي تموت صورتك،
لا لتتضح أكثر.

هل تسمعين ؟
نبضات قلبي بين دقات المطر ..
هل تبصرين ؟
دمعات عيني بين قطرات المطر ..
هل تشعرين ؟
لهفة قلبي إليك بين شوقنا إلى المطر ..
هل تذكرين ؟
أشعار قافيةٍ لكِ عند الهطول هل تذكرين ؟
ليتك تسمعين ...
وليتني أنسى وينسى الحنين .

وتسأليني هل زارتك؟
لهفة الكتابة هل جاءتك؟
زارت وهيجت أشواق قلبٍ متقد،
وضمت بلهفتها
دمعات عينٍ تحترق،
وهمى علي حنينٍ قطرٍ
من سماءٍ ترتعد،
زارتني الذكرى
بروحٍ تحتضر،
فدقت في سماء الروح
دقات قلبٍ مرتعد،
وسرّت في أرجاء الغيوم
نظرات عينٍ ترتجف،
فسالت مآقي الدموع
خشيةً صوتٍ ينتفض،
وجرى عبر الروض
بين ذكرى تحترق،
وعلى أعراش حبٍ
نام شوقٌ ينتظر.

أنا لا أبالي،

إن أتيت وإن رحلت وإن بكيت وإن شهقت مُرغاما،
زعم الفؤاد بأن الجهل أجمل مما قد مضى،
رُغم الفؤاد، إليك ترنو إليك الروح لهفةً وتشوقا،
أنا لا أبالي إن بكى فؤادي ممسياً أو مصبحاً،
أنا لا أبالي إن .. هجرت وإن ذهبت وإن رحلت مُعَرَّضاً،
ومتى أبالي ..

وأنت في النسيان ترقد ممسياً وتطير فيه مصبحاً؟
وكيف أبالي وأنت لم تترك في فكري لي موضعاً؟
وها أنا وأنا أبالي،
أريت مني ما بلى وتكسر؟
أعميت عني بالحياة، فهل تُعيد الحياة ماضى كما مضى؟
أرأيت كيف يصنع بي الزمن .. وبك ..
إن حل أو مضى كما مضى؟
أبصرت؟ ما الجور الذي يطغى على النفس،
حتى يميت ..
ماله يبقى وما بقى.

وتخبرني أن الحياة جهاد،
أوما علمت أن الجهاد أيضاً معك؟
وجهاد الحياة يحمل الكثير من الخسائر،
كأنفسها وأفضلها؟
أوما علمت؟
أن الجهاد مع المشاعر،
مُفجِع يَلْقَى الفؤاد المستهام بأسهم الشوق المتقد؟
أوما علمت؟
أن الجهاد مع الأفكار،
يفني العقول التي تجتهد؟
أوما علمت؟
أن الجهاد بالدعاء،
يُبكي العيوني التي تنفرد؟
أوما علمت؟
أنك حين تخبرني أحبك،
أبدي الجفا لكنني أرتجف؟

لا زالتُ تمطر، وأنت لا زلتَ، تعمدُ إلى الصمت،
لازلتُ الريح تعصف، وأنت لم يُحرك لك ساكن،
لازلتُ أقف، أنتظر، وأنت في حالٍ وبالٍ آخر.

أكل فؤادي لهيب الحنين
فهل تراك تطفئها بالإياب؟

دعني لا أفتح الباب لك،
وأجعلك تنتظر،
قليلاً .. تتذوق بعض ما تجرعت،
دعني لا أقلب الصفحة،
وأدعك تتأمل،
فضاعة ما أفسدت!

وَتُحَدِّثُنَا قَائِلًا: تَرَكْتُ كُلَّ أَشْيَائِي وَسَافَرْتُ،
فَهَلْ تَرَكْتُ رُوحِي مَعَ أَشْيَاءِك؟
أَمْ أَنْكَ أَخْرَجْتَ قَلْبِي،
وَوَضَعْتَهُ عَلَى أَعْتَابِ مَدِينَةٍ هَجَرَك؟

أقرأ؟

أقرأ ما بقلبي لك؟

أقرأ بردياتي عنك؟

أقرأ أمسياتي فيك؟

أقرأ رسائلتي التي لم أرسلها إليك؟

روحي المنهكة منك؟

أقرأ؟

ماذا أقرأ وماذا أدع؟؟

تخبرني أنت أن كل شيء سهل،
ولا شيء صعب!
أخبرك أنا أن كل شيء سهل،
ولقياك صعب،
حديثك صعب،
كيف تخبرني ان كل شيء سهل
وفيك العسر بأكمله إجتمع؟؟

كُنْتُ شَجْرَةً كَبِيرَةً عَتِيقَةً،
صَامِدَةً،
حَتَّى أَتَتْ رِيَا حُكَّ فَكَسَرَتْ نِي،
الرِّيحُ لَا تَكْسِرُ،
العَوَاصِفُ تَمِيتُ.

لَا زِلْتُ لَا أَعْلَمُ،
عَنْ حَالِ تِلْكَ الْجَمَلَةِ الضَّائِعَةِ بَيْنِ الْأَسْطَرِ،
كُتِبَتْ فِيهَا:
لَا أَعْلَمُ أَكَسَرَتْ نِي رِيحُ هَجْرِكَ؟
أَمْ كَبْرِيَاءُ عُنْقَاءِ بَنِي رَائِحَةٍ تَغْفُو بِدَاخِلِي؟

على شفّتيك يا قمري
شبح بسمّة هاربة
في عينيك يا بدري
ضوء إنارة شاحبة
في حديثك يا ليلي
برد روحٍ نائمة
عند لقياك يا عطري
شوق نفسي عائدة
حرارة يديك يا وطني
بكل حبٍ دافئة
بكل قصدٍ مني
يا روح.. عليكِ عتاييا

كنتُ أتَحَاشَى النظرَ إلى عِينِكَ،
أَعِينٍ مِنْ نَحْبِ أَوْطَانٍ،
وَهِيَ مَنَافِذُ لِلرُّوحِ، وَأَعْمَقُ نَقْطَةٍ فِي الْفُؤَادِ،
كُنْتُ أَتَحَاشَى مَسَاسَ يَدَيْكَ،
أَعْلَمُ يَقِينًا بِرُودَتِهَا الَّتِي سَتَجْمِدُنِي خَوْفًا عَلَيْكَ،
وَحِينَ قَضَى اللَّهُ،
وَقَدَّرَ الْمَوْلَى أَنْ تَتَكَسَّرَ كُلُّ مَجَادِيفِي فِي بَحْرِكَ،
وَتَفْسُدَ أَسْبَابِي لِأَجْلِكَ،
وَتَمُوتَ هَمِّمَاتِي فِي عَيْنِكَ،
قَدَّرَ لِي أَنْ أَلْتَقِيكَ صَدْفَةً،
لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعْنَا هُنَا، سِوَى الْقَدْرِ، يَا قَمَرٌ..
وَنَظَرْتُ إِلَى عَيْنِكَ وَكَلِمَةِ حَدِيثٍ مُسْتَعْرٍ،
أَلَحْتُ لَكَ بِبِسْمَةِ هُوَ احْتِضَانٌ عَلَى عَجَلٍ،
وَصَدَدْتُ عَنْكَ مَخَافَةً أَنْ أَضْطَرِبَ،
وَحِينَ نَاوَلْتِكَ الْكَأْسَ،
وَسَطَ الْحُضُورَ الْغَائِبَ،
وَالْحَدِيثَ الصَّامِتَ،
وَالْأَعِينَ الْهَائِمَةَ،
مَسَّتْ أَطْرَافَ بِنَانِي بِطْنِ يَدَيْكَ،
وَسَرَّتْ إِلَيَّ مِشَاعِرًا،

أطاحت بقلبي بين ذكرياتك،
وتدثرتُ بكفين كُنت أدثرهما،
ونظرت في عينين ... كنتُ أهابهما،
ما أدفء يداك تشبه يدا والدتي،
وما أبرد قلبك يشبه برد ليلي.

وتخشى على من لا يخشى عليك!
وتبدي الهوى لمن يبدي جفاه إليك!
وتسأل عن لا يسأل عنك!
تروح تجيء ببسمة سرقتُ عنان الروح لديك!
وتسأل عني مخافة منك
أن أبدي لك ما أخفيت،
تَهَوِّد .. تنفس،
فما كل ما ترنو إليه سيرنو إليك،
وودعتَ مني حبيباً قديماً وترجوه أن يعود إليك؟
وربك ماصبر المحبين دائماً
وإن عشقوا أو ماتوا لديك

أشعر بالبرد،
بالصقيع في وجودك،
بل وأرتجف،
منذ متى وأنا أحب البرد؟
أنتظره من السنة إلى السنة،
حتى ألقاه!
كحبيبة تائهة، تنتظر لقا حبيبها،
بكل لهفة وحنين،
لا أعد البطاطين، بل أعد الكعكات،
لا أعد الدفريات، بل أعد المظلات،
لا أختبئ خلف الأبواب، بل أمد يدي تحت القطرات،
منذ متى أخشى البرد؟
أذاك برد هجرك أم برد المطر؟
والخوف الذي كساني عباءة الإرتجاف،
خوفٌ منك أمن لُقاك؟

مُهْرَقَان

خاتمة

أختزل المشاعر الكبيرة في دقة الحروف الصغيرة ،
على يقين مني أن الحرف يحمل المشاعر النابضة ،
ولا يخون الأمانة ، ولا ينسى الوداد ،
وعلى كثرة ما نعطيه فإنه يحفظ العطاء ،
خطت مهرقان بقطرة من المياة التي فاضت ،
وفاضت وفااضت ،
من دماء قلبي ، ووجل فكري ، ودمع عيني
فكتبت القليل وبقي الكثير الكثير .

بعد شدة الأشواق يتجلى الـ "مُهْرَقَان" .

و مَهْرَقَان

المَهْرَقَانُ : البحرُ يَهْرِيقُ ماءهُ
على السَّاحِلِ إِذَا مَدَّ

: الموضعُ الذي
يفيضُ فيه ماءُ البحرِ